

مدرسة (دار الحديث الأشرفية) إعدادية دار الحديث النبوي الشرعية للبنين

أ. د. مازن المبارك^(*)

هي بناء لصارم الدين قايماز بن عبد الله النجمي في العصرية، اشتراه الملك الأشرف سنة ٦٢٨هـ، وكان بجانبه حمام لقايماز، اشتراه الملك الأشرف، وضمه إلى البناء الذي أقامه مدرسة أو داراً للحديث، وجعل الحمام داراً لسكن المدرّس.

وافتح دار الحديث في النصف من شعبان سنة ٦٣٠هـ، وجعل أمرها والتدريس فيها إلى شيخ الإسلام المعروف بأبي عمرو بن الصلاح. والملك الأشرف الذي نُسِبَتْ إليه دار الحديث الأشرفية، هو موسى بن الملك العادل محمد بن أيوب، توفي سنة ٦٣٥هـ، وكان عادلاً محبوباً محبباً للخير، أكثر من بناء دور العلم والمساجد، وبنى في دمشق مسجد أبي الدرداء، ومسجد التوبة، وجامع الجراح، ودارين للحديث النبوي، إحداهما في العصرية، وهي المعروفة اليوم بدار الحديث الأشرفية، والثانية في سفح قاسيون، وأوقف الأولى على الشافعية، وخص الثانية بالحنابلة.

وحصل الأشرف على نعل النبي ﷺ من ابن أبي الحديد الذي أوصى به إليه، فوضعه في دار الحديث، وقصة حصوله عليه وصورته وموضعه

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

مفصلة في الكتب التي تحدثت عن دار الحديث الأشرفية. ومن الجدير التنويه بهذه الكتب التي تناولت تاريخ الدار، وبناءها، وذكر أوقافها، وأسماء شيوخها، وما طرأ عليها من حرائق وأحداث، وتخلف وازدهار، ومن أشهرها: البداية والنهاية لابن كثير، والدارس في تاريخ المدارس للنعمي، ومنادمة الأطلال لعبد القادر بدران، ودار الحديث الأشرفية للدكتور محمد مطيع الحافظ.

ويرى من يعود إلى هذه الكتب وغيرها أن البناء مدرسة فيها مسجد أو قاعة لصلاة العاملين فيها والدارسين، وليست جامعاً أقيم للصلاة للعامة، ويقرأ في تلك الكتب كثيراً من أخبار الدار، ووثائق أوقافها وأحوال بنائها ونفقات العاملين والدارسين فيها، وما يوزع عليهم من أقلام وأوراق، ومن طعام وشراب، ومن ملح وثلج، ويعرف مقدار ما يأتيها من أوقاف، منها ثلث قرية حزرما، ومنها عدد من الحوانيت في باب البريد وغيرها! ولو أن القارئ مرّ على أسماء الشيوخ الذين سكنوا في دارها، أو تولّوا التدريس فيها لعرف مقدار ما خرّجت من طلاب وعلماء، وما قرئ فيها من كتب! بل ما أُلّف فيه أيضاً من كتب.

فلقد كان أول من درّس فيها ابن الصّلاح، ثم تلاه كبار علماء الحديث، فكان منهم أبو شامة، والإمام النووي، والمزّي، والسبكي، وابن كثير، وغيرهم. وكانت دروسهم مشهورة، ومجالسهم غاصة يحضرها كثير من العلماء والأعيان، وكان ممن يحضر الدروس في دار الحديث وغيرها أيضاً رجال كابن خلّكان وكصلاح الدين الأيوبي.

وكان ممن درّس فيها الشيخ يوسف والد الشيخ بدر الدين الحسيني، وقال عنها: «دار الحديث الأشرفية أسست على التقوى» وذلك في رسالته التي بعث

بها إلى الأمير عبد القادر الجزائري يطلب فيها مساعدته على انتزاع الدار ممن اشتراها، وإعادتها إلى ما أنشئت من أجله، فلقد مرت الدار في تاريخها بأحداث مؤسفة: منها ما ذكره ابن شامة من خراب أصابها سنة ٦٣٧ هـ وسنة ٦٥٨ هـ^(١)، منها حريق أصابها سنة ٧٠٢ هـ، وقد تأخرت حالها بعد الحريق الذي أصابها حتى آل أمرها إلى رجل غير مسلم اتخذ إحدى قاعاتها مستودعاً للخمور التي يبيعها، فقَيَّضَ الله لها بعد حين الشيخ يوسف والد الشيخ بدر الدين الحسيني الذي استطاع عن طريق عارف حكمت في الأستانة وبمساعدة الأمير عبد القادر الجزائري الذي دفع ما استعاد به الدار ورَمَمَها ووقفها على الشيخ يوسف وذريته، وقد أُرِّخت هذه الحجة الوقفية بتاريخ ٢ جمادى الأولى سنة ١٢٧٢ هـ، وقام فيها بعد ذلك الشيخ بدر الدين بن يوسف، فأحيها وأعاد إليها نشاطها وجعلها مركز إشعاع علمي وروحي.

ومن الجدير بالذكر أن الأمير عبد القادر الجزائري حين تمّ استلام المدرسة وبدئ بترميمها قام في رجب ١٢٧٣ هـ في المدرسة النورية بقراءة لصحيح البخاري حضره الشيخ يوسف، وكان موعد الدرس بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، وكان درس الختام لكتاب صحيح البخاري في آخر أيام رمضان، وانتهت الجلسة بقصيدة ألقاها ناظمها الشيخ يوسف بحضور الطلبة والأعيان، قال فيها:

باب القبول لهذا الختم قد فتحا	فلاح من يمنه بدر السعود ضحى
أما ترى السعد قد لاحت بشائره	وطائر اليمن في أدواحه صدحا
اسأل إلهك ما ترجوه من أمل	واضرع إليه فوجه القرب قد وضحا
وابسط يديك إلى مولاك مبتهلاً	فإن من أمّ باب الله قد نجحنا

(١) ذيل الروضتين ١٦٩ و ٢١٠.

وانتقل الأمير بعد ذلك فقرأ (الإتقان) في الجقمقية، ثم قرأ (الشفاء) والصحيحين في مشهد الحسين بالجامع الأموي^(٢).

ومنها ما ذكره بدران بعد سنة ١٢٠٠ هـ^(٣)، ومنها حريق سنة ١٩١٢ أصابها وذهب بمكتبة الشيخ بدر الدين الحسني.

ثم أعيد بناؤها وتجدد نشاطها أيام الشيخ بدر الدين الحسني الذي درس عليه كبار العلماء كالقدر والخطيب والبيطار وفرفور والرفاعي والرنكوسي والأتاسي والعطار والحلبي والرنكوسي ودبس وزيت (الحافظ) والمبارك والقوتلي والدوجي وكثيرون غيرهم.

وكانت للشيخ البدر بدار الحديث عناية خاصة، فقد كانت فيها غرفة أبيه، وكانت له من بعد أبيه مكتبة ومعتكفاً، وكانت المدرسة التي خرّج فيها عدداً من كبار العلماء. وأذكر حادثة وقعت أيام الشيخ عليه رحمة الله ورضوانه، وذلك حين طرق بابها عدد من تجار العصرية يريدون صلاة العصر في مسجدّها، فخرج إليهم الشيخ وصدّهم قائلاً: إن فيها مسجداً لطلابها وللعاملين فيها، وليس فيها (جامع) لعامة الناس، والجامع الأموي قريب وعليهم أن يصلّوا فيه مع الجماعة، وأغلق الباب دونهم.

وأوصى الشيخ بدر الدين ألا تُترك الدار، وأن تبقى قائمة بخدمة الحديث النبوي، فقام طلابه من بعده ولا سيّما الشيخان المكتبي والرنكوسي، واستعانوا بالتجار، وتألّفت لجنة الإشراف على الدار، وبذلت جهود خيرة حتى صدر مرسوم جمهوري سنة ١٩٥٤م يجعلها مدرسة شرعية باسم (إعدادية دار الحديث النبوي الشرعية للبنين)، ووُضعت لها

(٢) أعيان دمشق في القرن الثالث عشر: ٧٩٥.

(٣) منادمة الأطلال ٢٠ ومابعدھا.

الأنظمة والمناهج التدريسية، وتُشرف وزارة التربية على امتحاناتها، ويُمنح فيها الطلاب الشهادة الإعدادية الشرعية المعادلة للإعدادية العامة. وتولى إدارتها عدد من الشيوخ الأفاضل. وهي اليوم بإدارة الشيخ حسين صعبية، الذي رأيت اهتمامه وحسن رعايته للمدرسة، مما جعلها قبلة للراغبين من الطلاب والدارسين. ويجري العمل فيها وفق نظام تشرف عليه جمعية دار الحديث. وأسأل الله أن تبقى الأشرفية مدرسة للإشعاع النبوي تتابع رسالة واقفها، وأن يوفق القائمين عليها بمساعدة وزارة الأوقاف إلى إحياء أوقافها والنهوض بما أُوقفت له.

* * *